

خالد بن عبد الله الزرير

عبد الناصر محمد مغنم

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إلى الذين لا يزالون يعيشون في الأوهام، ويظنون أن اليهـــود يمكن الركون إليهم والعيش معهم في أمن وسلام، وإلى الذين غرر بهم وخدعوا بالادعاءات التي أطلقها إخوان القـــردة والخنـــازير، وأرباب الغدر والخيانة ونقض العهود، بإمكانية العـــيش جنبًـــا إلى جنب في مجتمع واحد!!

إلى هؤلاء، وإلى كل من سلك مسلكهم، واتبـــع خطـــاهم، وروج لمذهبهم، وظن واهمًا أن السلام مع اليهود سيجلب الأمـــن والرخاء والعيش الرغيد.. أقدم هذه المجموعـــة القصصـــية الـــتي استوحيتها من واقع الجهاد الفلسطيني، واستقيت أحداثها من بـــين الأشلاء الطاهرة المتناثرة، ونمقت عباراتها بعبق الدماء الزكية الـــتي سالت جداول في أرض الإسراء المباركة..

وإنما أردت بعرض هذه النماذج المؤثرة أن أهز الغافلين عـــن الجرائم الصهيونية التي ارتكبتها العصابات اليهودية الحاقدة في أرض الإسراء، وأن أحرك الضمائر النائمة لعلها تصحو من غفلتها فتقدم شيئًا ولو يسيرًا..

كما أقدم هذه المجموعة للباحثين عن الحق، المتشوقين لمعرفة ما يجري في ربوع أرض الرباط من أحداث بطولية دامية تبذل فيهـــا المهج والأرواح لإعلاء كلمة الدين، ونصرة الحق المبين...

وكذلك هي هدية متواضعة أقـــدمها إلى الإخـــوة المجاهـــدين المرابطين في أرض الإسراء .. وإلى كل من ضحى بحياتـــه وشـــبابه فداء للدين والعقيدة، فشمخ بدمه الزكي شموخ الأبطال، ورفـــض حياة القهر والإذلال.

ثم أهدي هذه المجموعة للثكالى والأيامى والأيتام الذين يعيشون فوق جمر الاحتلال.. وأقول لمن ضحى وصبر: أبشر فإن فجر النصر قادم، وسيأتي وعد الله ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٧].

ولا بد أن تتحقق بشرى سيد البشر عندما ينطـــق الحجـــر أو الشجر الذي يتوارى خلفه اليهودي فيقول: «**يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله...**».

كتبه:

خالد بن عبد الله الزرير

٨/ ٣/ ١٤٢٢هـ

بأي ذنب قُتلت!

أسدل الليل ستاره على مدينة نابلس..

أم سارة تحس بخفقان قلبها فتلهج بالدعاء.. تتسلل الدموع من بين جفونها .. ترفع كفيها إلي السماء..

- اللهم اشف ابنتي .. اللهم ردها إلي سالمة يا رب ..

تسمع أزيز الرصاص يدوي من بعيد.. تشعر بكمـــد يخنـــق أنفاسها .. تضطرب وتتمتم ..

- سترك يا الله..

... لم يمض وقت طويل حتى عاد عبد العظيم من المستشـــفى بعد أن عالج ابنته الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها سنتين..

كانت قد أصيبت بالتهاب حاد مصحوب بارتفاع في درجـــة الحرارة... وبينما كان يقود سيارته عائدًا إلى بيته فـــوجئ بـــأزيز الرصاص يحطم هدوء الليل، وينطلق نحو سيارته..

أدرك عبد العظيم في تلك الليلة المظلمة الحالكة أنه دخل منطقة خطرة يحيط بها الجنود والمستوطنون..

شعر بأنه غدا هدفًا سهلاً لوابل غزير من الرصاص الصـــهيوني الغادر الذي أصاب السيارة من الخلف.

التفت الوالد المسكين إلى المقعد الخلفي ليطمئن على ابنته وابنة أخيه..

فوجئ بمشهد مروع لم يخطر له ببال..

جعل يصيح بصوت أجش اختلط بألم..

- ريما .. ريما ..

لم تجبه ابنة أخيه..

أسرع بسيارته ليتجاوز منطقة الخطر..

توقف على جانب الطريق ونزل من سيارته..

فتح الباب الخلفي وجعل يهز ابنة أخيه..

- ريما .. ريما..

جعلت ريما تتأوه من الألم .. كانت الـــدماء غزيـــرة تغطـــي حجرها.

- رباه كل هذا حدث الساعة..

أراد أن يتناول ابنته الصغيرة من حجرها..

فوجئ المسكين بمشهد الصغيرة المغطاة بالدماء..

صرخ بألم ..

- سارة .. سارة ..

لم تبد أي حركة .. رفعها قليلاً وإذا بالدماء تنفر من رأسها.. فقد شج برصاصة غادرة أدت إلى مقتلها على الفور.. فيما كانت ريما لا تزال مغمى عليها..

وصل عبد العظيم إلي البيت .. ترجل من السيارة بسرعة والهلع قد بلغ منه كل مبلغ، جعل ينادي ويصرخ على أخيه..

– ربيع .. ربيع .. أدركني بسرعة فقد أصيبت سارة وريما.

ويسرع أخوه لنجدته.. وينقل ريما وسارة إلى المستشـــفى .. ويتأكدان من موت سارة، وإصابة ريما بكسر بالغ في الحـــوض.. بينما يظل شريط الذكريات يعيد إلى ذهن عبد العظيم الأيام الخوالي التي كان يقضيها مع الطفلة المغدورة..

ينحب بأسي.. تتقاطر دموعه على وجنتيه .. يخاطب نفسه.

– كيف ستكون حياتي بعد موت سارة.. لقد كانت ينبوعًـــا من الفرح..

تذكر كيف كان يعود إلى المنزل من عمله متعبًا .. ثم لا يكاد يفتح الباب حتى تبتهج سارة لقدومه، وتفرح لمجيئه، ولمجرد رؤيـــة بهجتها يزول عنه أثر الهم والتعب .. جعل يتمتم..

– كنت أحتضنها وألعب معها.. كانت تزيل عني كل همـــوم العمل والحياة..

كل هذه الذكريات كانت تعمل في قلب عبد العظيم عمـــل السكاكين..

تصل الأخبار للأم التي كانت تنتظر عودهما بفارغ الصبر.. يقع النبأ على قلبها وقع الصاعقة تذهل مما تسمع .. تبكي .. تصـــاب بالدوار .. تسقط على الأرض..

تسجى الطفلة الصغيرة على سريرها كالملاك الطاهر ثم توارى الثرى..

أقوى من انفجار

ليل هادر في سماء غزة .. صوت الطائرات ظل يدوي ويصم الآذان .. المجنزرات اليهودية تحاصر المدينة وتزحف نحوها.. جيش الاحتلال ينشر الرعب ويبث الخوف والهلع في القلوب.

العيون واجمة تترقب..

ويبدأ القصف العنيف المتواصل .. ويستمر لساعات في الليل الذي تحول إلى نهار من كثرة النيران والقنابل المضيئة ..

كانت المستوطنات المتاخمة تصب نار حقدها على العُزَّل الأبرياء .. وكانت القذائف تتساقط بلا رحمة ولا تمييز ..

صارت البيوت تتهاوى تحت تأثير الانفجارات الهائلة .. تحولت مساحة واسعة إلى دماء .. وتناثرت الأشلاء الغضة هنا وهناك..

لكن حياة الذل والهوان التي فرضها اليهود تأباها الهمم العالية..

فقد كان صوت القرآن الكريم في جوف الليل يسمع في أحد البيوت..

جعل خليل يتأمل زوجته وأبناءه والخوف والهلع يسيطر على قلوبهم من القصف المتواصل.. نظر من النافذة وحدق في المستوطنة القريبة التي كانت تنفث اللهب نحو أحياء غزة..

هز رأسه وهو يتمتم ..

- سترون يا أوغاد .. !!

وفي الساعات الأولى من الصباح تهيأ خليل أبو علبة للتوجه إلى عمله..

ودع زوجته التي جعلت توصيه وتحذره..

- انتبه يا خليل .. إنهم قوم غدر وخيانة..

- لا عليك يا منال .. فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.. أحست بنبض قلبها يخفق على غير عادته.. أخفت دموعهــا الــتي تسللت من عينيها رغمًا عنها..

قبَّل أولاده ومنحهم ابتسامة نديَّةً قبل أن ينطلق متوجِّهًــا إلى عمله..

قاد سيارته مجتازًا الخطَّ الأخضر ومتوجِّهًا إلى نتانيــا؛ حيــث الشركة اليهودية التي كان يعمل فيها ..

كان يقود حافلة لنقل عمال بين غزة وتل أبيب ..

وكانت تدور في ذهنه أفكار وأفكار.. ولسان حاله يقول:

دمنا فدى الأقصــى يســيل وفي

أوطاننـــا تتنـــاثر الأشـــلاء

وعلى جماجمنا ســنكتب خلفنــا

لبلادنـــا ولشـــعبنا العليـــاء

وصل إلى نتانيا فجعل يجوب طرقاتها ويلتفت يمنة ويسرة يبحث عن شيء..

ظل يتنقل بين الطّرقات حتى لاح لناظريه ما كان يبحث عنه..

تجمُّع كبير للجنود الذين عزموا على التَّوَجُّه إلى أماكن عملهم، لممارسة حربهم ضد الانتفاضة..

تهلَّلَ وجهُ خليل وبدا عليه السرور..

خفف السرعة وجعل يفكر في أفضل طريقة لاغتنـــام هـــذه الفرصة السانحة..

أعطى إشارة ليوهم الجنود بأنه سيتوقف لنقلـــهم إلى حيـــث يريدون..

نظر إليهم وتأملهم فشعر أنه أمام حفنة عفنة لابد من التخلص منها..

إِسرع نحو الهدف المحدود وهجم كالصاعقة..

لم يدر في خلد أحد من الجنود أن هذا سيحصل..

كانت المفاجأة صاعقة..

وبقدرة الله عز وجل انقلب كل شيء رأسًا على عقب..

تطايرت الأشلاء، وتناثرت الجماجم..

وظلت الحافلة تلاحق الهاربين..

تسعة من الجنود تمزقت أجسادهم وتحولوا إلى جثث هامدة..

وعشرون آخرون يصرخون من الآلام المبرحة بسبب الجـــراح الغائرة..

حالة من الذعر والفوضى انتشرت بين الناس في المكان المحـــيط بالحادث..

ويطلق خليل لحافلته العنان .. ويحاول الفرار بعيدًا عن المكان..

ولكن الجيش يستنفر لملاحقته..

وتبدأ المطاردة..

ويسمع صوت الطائرات الهادر..

وتلاحقه القذائف وزخات الرصاص..

ويصاب خليل إصابة خطيرة فيغمى عليه..

ويقبض عليه الجنود بعد مطاردة طويلة قامت قوات الأمن..

ويشاء الله تعالى أن يشفى وتعود إليه عافيته .. ولكن بعد بتـــر ساقه..

ويساق للمحاكمة ليقف شامخًا أمام الغاصبين ..

ويأتي دوره ليعترف بالحادثة أمام القضاة وأهالي الجنود..

ينظر إليهم بعينين مطمئنتين..

– لست نادمًا على ما فعلت.. ولو أتيحت لي فرصة أخـــرى لفعلت أكثر..

تدمع عينا أمه وهي تشاهده على شاشة التلفاز أثناء المحاكمة..

تبكي بحرقة وألم .. يحاول أبناؤها تهدئة روعها..

تمسح دموعها الثَّخينة وهي تردد:

ـ لقد رفع رأسي شامخًا وسط النساء .. لقد أذاق الصهاينة من نفس الكأس الذي تجرعه آلاف الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا ودير ياسين ومذبحة الخليل.

وتتابع بصبر وثبات:

- إن أشد ما يؤلمني أنه ما زال حيا في قبضة اليهــود الــذين انعدمت الرحمة في قلوبهم .. كنت أتمنى له الشهادة.. كــان الله في عونك يا ولدي .. فلطالما كنت تذكرنا بالله، وترشدنا إلى الخير ..

وعند سماع والده الخبر تهللــت أســاريره وشــعر بــالفخر والارتياح..

علق على ذلك قائلاً:

إن الأعمال الإجرامية التي قام بها اليهود من قتل وقصف، وقلع للأشجار، وهدم للبيوت، كانت دافعًا جعل خليل يقدم على عملية يدفع ثمنًا لها حريته، أو حياته، فالحياة متاع قليل، وأجمل ما فيها أن يموت الإنسان مجاهدًا في سبيل الله.. وهذا ما دفع الصحابة رضــي الله عنهم إلى الإقدام إلى الموت وكأنهم مقدمين إلى حياة؛ بل إنهــا حياة، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّــهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩].

درة الشهداء

جموع من الأبطال تملأ شوارع غزة .. هتافات غاضبة تجلجل في المكان .. تدافع الأشاوس من هنا وهناك.. فهذا يحمل حجـــرًا، وذاك يحمل زجاجة حارقة، وذاك يدفع إطارًا مشتعلاً..

وكل هؤلاء يجمعهم همٌّ واحد وعقيدة واحدة بأن لا مكـــان للمحتلين في هذه الأرض المباركة .. تدافع المجاهدون نحـــو جنـــود الاحتلال ببسالة وشجاعة وصـــدور عاريـــة لا تأبَـــهُ بالقـــذائف والرّصاص..

همم عالية تحمل الرُّعب والفزع للجنود الخائفين الذين تترسوا خلف مجنزراتهم ودشمهم وأوصالهم ترتعد..

وصدق الله إذ يقول: **﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّـــا فِـــي قُـــرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾** [الحشر: ١٤].

أبطال هبُّوا ينافحون عن الدين والعقيدة والمقدسات..

هانت عليهم الدُّنيا عندما تراقصت أمـــام أعينـــهم أطيـــاف الشهادة..

تعالت هتافات المجاهدين في الحثِّ على المواجهة والصَّبر عنـــد اللقاء..

قذفوا ما لديهم من حجارة في وجوه اليهود الغاصبين وكأنهـــا حجارة من سجيل..

كانت تنهمر على الجنود وكأنَّها المطر الغزير..

جعلت حناجرهم تردِّد وتجلجل.. ﴿**وَمَا رَمَيْـــتَ إِذْ رَمَيْـــتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال: ١٤].

كان «جمال الدرة» يتأمل هذه الجموع وهو يبحث عن طريق آمنة للخروج بابنه الصغير «محمد» من هذه المحنة الملتهبة..

تأمل الناس في المعمعة من حوله.. أمسك بيد ابنـــه وجـــرى مسرعًا نحو طريق جانبي عله يجد المخرج الآمن الـــذي يـــؤدي إلى منزله..

ولكنَّه فوجئ بالرّصاص الغزير ينطلق من كل جانب.

عاد أدراجَه للخلف .. جعل يبحث عن طريق آخر..

جعل ابنه يصرخ..

- أبي احمين يا أبي..

شعر «جمال» بأنه محاصر وسط اللهيب..

أمسك بيد ابنه..

- تعال يا بني نختبئ خلف هذا البرميل..

ويحتميان ببرميل أسمنتي قرب جدار ..

وينهمر الرصاص عليهما بغزارة .. ويحتضن الوالد ابنه ويحاول صد الرصاص عنه بجسده..

يصرخ «محمد» بحرقة..

* أبي أبي خائف..

* لا تخف يا بني إن الله معنا..

يصيح الوالد بأعلى صوته..

* لا تطلقوا الرصاص .. ستقتلون الولد..

يصاب محمد في ساقه..

* أبي ساقي يا أبي..

ينظر جمال بدهشة إلى الدماء تسيل من ساق ولده..

* ماذا أصابك يا ولدي؟

يصرخ محمد متألماً..

* أصبت يا أبي..

يواصل جمال الصراخ على القتلة..

* مات الولد .. مات الولد..

يكررها مرارًا ولكن دون جدوى..

يخترق الرصاص جسم الطفل ويرتمي في أحضـــان أبيـــه دون حراك بعد أن تمزقت أحشاؤه..

و لم يقف الحقد اليهودي عند هذا الحد .. بل تعداه بـــإطلاق رصاصات غادرة أخرى لتستقر في جسد الوالد المفجوع في مشهد تهتز له الأفئدة..

ويحاول «جمال» النهوض ولكنه لا يقدر..

ويراهما سائق إسعاف شجاع فيهرع لنجدهما..

يترجل من سيارته مخاطرًا بحياته..

يحاول الوصول إليهما وسط الرصاص الذي لم يتوقف..

يتلقى هو الآخر رصاصات غادرة يسقط على أثرها بـــالقرب من الوالد وولده..

ويلفظ سائق الإسعاف أنفاسه قبل نقله إلى المستشفى..

ويقضي «محمد» نحبَه ليسطر بدمائه صفحة سوداء أخـــرى في سجل المحتلين اليهود..

ويستيقظ الوالد في غرفة العمليات فيسأل عن ولده..

– أين ولدي .. هل قتلوه؟!

وتتسلل الدموع غزيرة من بين أجفانه..

* * *

وفي أرض الإسراء تتكرَّر هذه المشاهد المحزنة كل يوم.. وتتوالى صفحات الجهاد والاستشهاد.. وطالما ظلَّ الاحتلال البغيض جاثمًا على الصدور فإن مثل هذه الصفحات النازفة لن تتوقف..

فهذه أسرة فقدت عائلها .. وتلك أم ثكلى فقدت ولـــدها.. والبطش والقهر مستمر لا يفرق بين صغير وكبير.. وفي كل بيـــت جرح غائر ومصيبة .. وفي كل يوم يلحق مجموعة مـــن الشـــهداء

بالرَّكب في قافلة متواصلة لا تتوقف .. شهيد إثر شهيد.. وما قتل هؤلاء الأبرياء إلا مسامير في نعش الكيان الصهيوني الذي ســيؤول إلى الزَّوال طال الزَّمان أم قصر..

وما ذنب هؤلاء الأطفال الذين يقتلون بلا رحمة؟!

إنه الحقد الموروث، والخوف من الجيل الذي يحمل لهم المـــوت والدمار..

تقول الهالكة اليهودية غولدا مائير: «أشعر بطعنة خنجر كلما ولد طفل فلسطيني» .. وتقول أيضًا: «... أريد أن أرضع اليهـــود كره العرب مع الحليب».

وهذا ليس مستغربًا على اليهود الحاقدين الذين يمكرون بنا مكر الليل والنهار.. ويتربصون بنا الدوائر .. عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا..

ولكن القرآن الكريم فضحهم، فقال الله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْـــرَكُوا**﴾ [المائـــدة: ٨٢].

وهذه بعض الأبيات المعبرة للدكتور الشـــاعر عبـــد الــــرحمن العشماوي جزاه الله خيرًا يقول:

يــــــا كــــــل أب يـــــرحم ابنًــــــا
يــــــا كــــــل رجــــــال الإســــــلام
أســــــلام أن تســــــرق أرضـــــــي
أن يقتــــــل في حضــــــني رامـــــــي
يــــــا أهــــــل الأبــــــواق أجيبــــــوا
يــــــا أهــــــل الســــــبق الإعلامـــــــي
والآن ســــــــــــيمكث في قلـــــــــبي
لــــــن أنســــــى مبســــــمه الــــــدامي

وصدق من قال:

كيف السكوت وفي الأقصى أرى عجبًــا
زخ الرصـــاص علـــى الأطفـــال ينـــهمر

* * *

كيف السكوت وفي الأقصى أرى عجبا
زخ الرصـــاص علـــى الأطفـــال ينـــهمر

* * *

الأفعى اليهودية

سامر طفل لم يتجاوز عمره الثانية عشرة سنة، يجري في دمــه حب الجهاد والشهادة في سبيل الله..

وفي صباح يوم جميل في مدينة نابلس .. خرج لــيرى جمــوع الطلبة في طرقات المدينة وهي تهتف هتافات غاضبة ضدَّ المحتلين..

كان سعيدًا مسرورًا لرؤية المتظاهرين الذين خرجــوا نصــرة للأقصى المبارك الذي دنسه اليهودي الحاقد شارون..

وعلى الشارع العام دار هذا الحوار الملتهب بين ســامر وبــين نفسه الشامخة الأبية..

- إلى متى نظل نعيش حياة الذل والخنوع تحت وطأة اليهــود الأنجاس؟ إلى متى تظل فلسطين خاضعة للاحتلال البغيض؟ لابد أن نحرر الأقصى .. لابد أن نطرد اليهود..

كانت أفكار سامر تستحوذ على عقله وشــعوره.. وكانــت نفسه تتوق لمواجهة الظلم والطغيان..

وعاد أدراجه إلى بيته .. وقبل أن يصل سمــع هــدير طــائرة مروحية تحلق في السماء..

أسرع إلى مكان يمكنه فيه مشاهدتها..

جعل يحدق في السماء يبحث عنها..

أشار إليها وهو يصرخ .. إنها هناك .. إنها قادمة نحونا..

لم يدرك سامر أن الطـــائرة جـــاءت لتنفـــث لهبـــها باتجـــاه المتظاهرين..

وجعلت تنثر الرصاص والموت في محيط «مسجد النبي يوسف» في المدينة ..

وما هي إلا دقائق حتى ارتدت الأفعى اللعينـــة نحـــو «حلـــة الرهبان» - الحي الذي يسكنه سامر — والذي يبعد مسافة كـــبيرة عن موقع المواجهة..

عادت تبحث عن ضحية سهلة يمكن اصطيادها في هذه المدينة الغاضبة..

وجعل سامر يتابع سيرها..

وجعلت تقترب وتحلق فوقه..

وأطلقت رصاصة متفجرة سرعان ما اخترقت جسد الطفـــل ومزقت أحشاءه..

خر سامر على الأرض دون حراك..

أسرع بعض أهله إليه فزعين..

رفعوه عن الأرض والدماء تسيل من جسده بغزارة..

نظروا إلى وجهه بتأمل ودهشة..

رأوا تلك الابتسامة التي ظلت تزين محياه بالرغم من موتـــه .. بكوا لمشهده بكاء مرًا..

خرجت عمته ناهد وهي تصرخ: أحصل له مكروه؟

وتخطت النساء والأطفال لترى سامر مسجى قد غطت جسده الدماء..

وما أن وصل الخبر إلى والدته إيمان حتى هرعـــت لرؤيتـــه.. نظرت إليه ملفعًا بثوب مبتلّ بالدِّماء.. رأته ففزعت لمنظره..

لم تحتمل المشهدَ فانهارت على الفور.. كيف لا وسامر ابنـــها البكر..

كانت أسئلة عديدة تدور في ذهن العمَّة التي كانت قريبة مـــن مكان الحادث..

– لماذا يحقد اليهود علينا كلَّ هذا الحقد.. لماذا يقتلون الأطفال والرجال والنساء العُزَّل من السِّلاح؟

– لماذا يهدمون البيوتَ ويشرِّدون الأسر التي لا حول لهـــا ولا قوة؟

أسئلة كانت تنطلق من فم هذه المـــرأة المكلومـــة كـــالحمم واللهب.. لم يكن حال الأم المفجوعة بولدها بأقل من حال عمته.. فقد كانت الصدمة كبيرة جعلتها تغيب عن الوعي فترة طويلة..

أما شقيق سامر الذي يصغره بعامين، فقد رأى أخـــاه يشـــيع ويحمل على الأكتاف في تظاهرة غاضبة..

رأى ذلك فانطلقت من فمه كلمات اختلطت بالبكاء..

إلي أين تذهبون بسامر؟!

أعيدوه إلى البيت..

انطلق وراء أخيه حافية قدماه، راجيًا منـــهم أن يعيـــدوه إلى البيت.. لكن دون جدوى.. ثم عاد الأخ المسكين بعد أن يئس من عودة أخيه سامر إلى البيت.. ومنذ تلك اللحظة ويوسف يجلـــس بجانب أمه لا يفارقها..

أما الوالد فقد تجرع ألوانًا من الحسرة والأسى على فقد ولده..

جلست جدته بين المعزِّين حزينةً كسيفة.. ترحَّمـــت عليـــه ومسحت دموعها..

– كان رحمه الله يحبُّ أخاه الصَّغير يوسف.. وكان يوســـف متعلقًا به.. كانا يلعبان ويذهبان إلى المدرسة سويًّا .. لقد اكتست غرفتهما بالرسوم الجميلة .. لكنها فقدت جمالها وبهاءهـــا بغيـــاب سامر .. لم أعد أطيق رؤيتها بعد مقتله.. حتى يوسف لم يعد يحب دخولها .. فقد باتت مثل وحش مفترس في نظره .. فهو لا يطيـــق غياب أخيه سامر عنها..

* * *

وانهمرت الدموع..!!

جلس وقد طوَّق ركبتيه بساعديه .. تأمَّل جـــدران السِّـــجن الكالحة .. جعل يحدِّق في كتابات السُّجناء المتناثرة عليها هنا وهناك .. بعضها كتب بالدم .. وبعضها الآخر برماد الأوراق المحترقة ..

(أحبك يا وطن)، (يهون السجن كرمال الـــدين والـــوطن)، (ترخص الروح من أجلك يا أقصى)، (صامدون حتى آخر رمق)..

تذكر أولئك الذين سطرت أناملهم هذه العبارات الخالدة..

جهاد سعد، خرج من السجن بعد أن أمضى مـــدة حكمـــه، عشر سنوات من المعاناة..

أيمن جميل، خرج بعدما هزل جسمه نتيجة التعذيب .. قـــالوا بأنهم نقلوه للعلاج في المستشفي.. ولكن لا أحد في السجن يعرف مصيره .. فقد مضى على خروجه ستة أشهر دون أن يعرف أحـــد خبرًا عن حالته..

مفيد عمران، حاول الفرار من السجن، لكنه لم يفلح، فنقل إلى زنزانة انفرادية، ومضى على غيابه سنة كاملة.. آاه .. تنهد بعمـــق وأسى.

طأطأ برأسه حتى لامس ركبتيه .. تذكر يوم حاول التســـلل برفقة مجموعة من المجاهدين لتنفيذ عملية عسكرية ضد المحـــتلين .. لقد تعرض لمخاطر كبيرة عندما اختـــرق الحـــاجز العســـكري في الجولان .. ولكنه نجح في الوصول إلى إحدى المستوطنات التي تحيط

بمدينة الناصرة..

رفع رأسه وحدَّق وكأنَّه ينظر إلى الماضي البعيد..

كانت معركة غير متكافئة .. بنادق قليلة في مواجهة الــدروع والآليات البغيضة.. كان لابدَّ من الهجوم وإطــلاق الرصــاص .. ونشبت معركة رائعة.. سقط جندي ليسبح في بقعة من الدماء .. هرع أصدقاؤه من الجنود للمكان.. وكانت مواجهة عنيفة .. ألقى بقنبلة يدوية لتنفجر وتدوي وسط جموع المستوطنين..

كشف عن كتفه وتحسس موضع الرصاصة..

أصيب يومها فسقط مغشيًّا عليه.. وعندما استيقظ وجد نفسه في مستشفى سجن الرملة.. كان أول خبر يلقى على مسامعه مقتل رفاقه كلهم في المعركة..

مضت سنوات وسنوات.. رأى خلالها أهــوالاً لا تتحملــها الجبال..

نظر إلى يمينه فرأى صديقه عثمان يهيئ كوفيــة نســجها في السجن، وعقدًا جميلاً، ويلفّهما بقطعة من القماش.. نهض إليــه.. تقدَّم منه ببطء .. مد يده إليه .. ربت على كتفه وابتسم له..

- ستراهم أخيرًا يا عثمان.. هنيئًا لك..

التفت عثمان نحوه وقد علت وجهه إشراقة فرح وسرور..

- نعم يا أخي .. إنها المرة الأولى بعد أكثر من خمس سنوات..

نظر إلى عينيه فرأى بريقًا يتسلَّل مع دمــوع ثخينــة حــاول

إخفاءها.. تذكر أنه لم ير أهله هو الآخر منذ سنين طويلة.. ربــت على كتفه ..

– لا تيأس يا محمد.. فلابد أن يتداركك الله برحمته..

– إنني أشعر بسعادة عندما أرى أخًا لي في هذا السجن يقابل أهله أو يفرج عنه..

– هون الله عليك يا أخي .. لابد أن يأتي اليوم الذي ترى فيه أمك وأهلك..

– لا أظن أني سأراهم يا أخي .. فأنا هنا في سجون اليهــود منذ ثمانية عشر عامًا، وهم هناك في حلب.. هيهات هيهات..

يبكيان ويتعانقان..

صوت بغيض يعكر صفو المكان..

– عثمان .. هيا لرؤية والديك..

يهدئ من روع محمد.. يلتفت نحــو الجنــدي الــذي جــاء ليصحبه..

– وأنت يا محمد .. هيا..

ينظر إلى السَّجَّان بدهشة..

– أنا .. إلى أين؟!

– هناك زائر ينتظر رؤيتك ..

– زائر .. آاه لعله جهاد .. فقد وعدني بالزيارة..

يخرج بصحبة الجندي وعثمان لرؤية زائره..

ينظر بين الحاضرين.. يلتفت يمينًا وشمالاً..

- أين أنت يا جهاد؟! .. أمر غريب ..

يسمع صوت امرأة عجوز تخاطبه..

- أرجوك يا بني .. هل يمكنك مساعدتي ..؟!

- طبعًا يا خالة.. اطلبي مني ما شئت..

- أريدك أن تدلني على ولدي.

- ومن هو ولدك يا خالة..

- إنه محمد.. اعتقله اليهود منذ ثمانية عشر عامًا..

- ماذا؟!

يتأملها .. يحدق في وجهها..

- هل أنا في حلم؟!

يصرخ وينفجر بالبكاء..

ــ أمي .. أمي.. أنا محمد يا أمي..

تنظر إليه وتتأمله..

- لا .. لا تمزح يا ولدي .. أنت لست ولدي..

ــ بلي يا أمي..

يضطرب .. يفكر .. يتذكر .. يخلع قميصه..

- انظري إلى هذه الندبة .. هل أيقنت بأني محمد الذي غـــاب عنك كل هذه السنين الطويلة..

تتأمل ندبة كانت على ساعده..

- محمد ولدي .. أخيرًا .. الحمد لله..

تعانقه بحرارة .. تقبل وجهه ورأسه.. يقبل يديها، ويبكيـــان طويلاً..

- كيف وصلت إلى هنا يا أمي؟!

تنظر إليه برأفة وحنان..

- لجأت لمن يجيب المضطر إذا دعاه.. دعوته ليلاً ونهارًا.. كان قلبي يحس بأن الله سيستجيب لي في يوم من الأيام .. وظـــل هـــذا الأمل يرافقني طيلة كل هذه السنوات.. وجاءني الخبر أخيرًا أنـــك حي في سجن من سجون اليهود..

- من أخبرك يا أمي؟!

- إنه رجل يعمل في لجنة لحقوق الإنسان يا ولدي..

- لا حق للإنسان هنا يا أمي..

يتحدثان بانسجام وألفة .. يسألها عن أبيـــه وإخوتـــه وبيتـــه وبلده.. تحدثه ويحدثها حديث ود ومحبة وهناء.. تمضي ساعة مـــن الزمن لم يشعرا بمثل حلاوتها من قبل ولكنها تمضي بسرعة كطرفـــة عين..

يقطع حديثهما صوت الجندي البغيض..

- محمد .. انتهت الزيارة.. هيا..

يقبل يدي أمه.. ينظر إليها بلهفة .. يرمقها بنظــرات وداع، وكأنها النظرات الأخيرة .. تمسك بيده.. مهلاً يا ولدي.

- تعطيه مصحفًا في غلاف جميل نسجته له بيديها، وكتبــت عليه عبارة تقول: «كن مع الله ولا تُبال».

- تناوله بلطف وتأمَّله.. ضمَّه إلى صدره..

- إنها أغلى هدية يا أمي ..

يمسك السجَّان بساعده ويجره بغلظة..

- قلت لك انتهت الزيارة .. هيا..

يمضي وهو يوصي أمه بصوت مرتفع..

- سلمي على والدي وإخوتي .. لا تنسي الدعاء لي يا أمي..

تبكي بحرقة..

- وداعًا يا ولدي.. وداعًا يا قرة عيني..

ويقوده السجان بعيدًا عن والدته وهو لا يصرف بصره عنها.. يجره جرًا وبقوة.. يغيب أخيرًا خلف القضبان .. تمسح أمه دموعها الغزيرة .. تنهض وتيمم شطر بوابة السجن .. تخرج وهي تحمــل الأسى لتعاني سنوات أخرى من الفراق..

* * *

نحو معبر الشهادة..!!

أمواج البحر تندفع هادرة نحو الشـــاطئ، وتقـــتحم الرمـــال الذهبية، وتحاول التشبث بها والزحف نحو المعسكرات الجاثمة لجنود الاحتلال.. تتعالى مياه البحر غضبى تزأر كسجين مصفد اليـــدين والقدمين بالأغلال .. تحاول التعبير عن ثورتهـــا في مشـــهد يـــثير الغضب..

أجواء غزَّة تختلط بالدّخان والأزيز البغيض المنبعث من عجلات الآليات العسكرية التي تملأ المكان..

رصاص مجنون ينطلق من فوَّهات البنادق ليحصد الأبرياء..

طائرات تحلق في السماء وتبحث عن منزل لم يصب بقذيفة..

صفارات الإسعاف تختلط مع صـــوت الرصـــاص والصـــراخ ونداءات الغضب..

مدارس غزة تغلق أبوابها معلنة الإضراب حتى إشعار آخر ..

طلبة المدارس يجوبون الطرقات، ويتلفتون يمنة ويسرة بحثًا عـــن مخرج من هذه المعمعة المحتدمة..

يمسك أحمد بيد إبراهيم ويهرولان نحو زقاق ضيق بعيدًا عـــن زخات الرصاص..

يتوقفان قليلاً ويتنهدان بعد شعورهما بالنجاة.. ينظر أحمـــد إلى صديقه وابن عمه الذي أحبه وعاش ملازمًا له طيلة فترة الدراســـة

السابقة..

يبتسم في وجهه ويهدئ من روعه..

لا عليك فقد زال الخطر ..

- يهز إبراهيم رأسه..

- الحمد لله .. ولكن..

ينظر إليه أحمد بدهشة..

- ولكن ماذا؟!!

- ليس هذا ما أفكر به..

- ماذا تعني؟

- أريد أن أذهب لمعبر المنطار..

- معبر المنطار..

- نعم .. أريد أن أفعل شيئًا .. أريد أن أجاهد.. أريد أن..

- ولكن المنظار خطر جدًا .. ألم تسمع بالعشرات الذين قتلوا أثناء المواجهات الدامية فيه..

- بل سمعت .. وهذا الذي يجعلني أفكر بالذهاب إلى هناك..

يطرق أحمد ويفكر ..

- حسنًا .. دعنا نذهب الآن..

- لابد أن أحصل على النقود التي توصلني إلى هناك..

- لن أتركك تذهب وحدك..

- ماذا تعني؟!

- لابد أن أذهب معك.

يتهلل وجهه بالسرور .. يشعر بسعادة غامرة ..

- كنت أعرف أنك لن تتأخر عن ذلك..

يتعانقان وسط شعور بالفرح يغمر قلبيهما..

ينطلق كل منهما بخفة نحو منزله لا يشغله سوى كيفية الحصول على مبلغ من المال يدفعه أجرة لسيارة تقلُّـــه إلى المعـــبر الـــدموي الخطر..

يصل إبراهيم إلى منزله ويشرع في المحاولة..

- أمي .. أرجوك يا أمي..

تلتفت إليه أمه.. ماذا دهاك يا ولدي؟

- أريد بعض المال يا أمي..

تنظر إليه بدهشة ..

- و لم يا بني؟!

- إنني بحاجة إليه..

- لا أعطيك المال حتى تخبرني..

يتلعثم ويظهر عليه أثر الاضطراب..

– ما بالك يا بني؟!

– لا شيء يا أمي .. ولكن..

– ولكن ماذا يا إبراهيم؟

– بصراحة يا أمي .. أريد أن أذهب إلى معبر المنطار..

تصاب أمه بالذهول وتقترب منه وتمسك بكتفيه..

– إلى معبر المنطار .. أجننت ؟! أتريد أن يقتلك اليهود.. أما سمعت بما حل بشادي وفارس وغيرهما من أبناء المخيم .. لا يا بني .. لا .. إياك أن تذهب!!

– لماذا يا أمي .. لماذا تمنعيني من نيل الشهادة..

– وتريد أن تستشهد .. لا زلت صغيرًا يا بني .. أرجوك لا تحاول.. إني أحبك يا ولدي..

– وأنا أحبك يا أمي.. ولذلك أريد أن أستشهد .. أريد أن أشفع لك ولأبي يوم القيامة .. ألا يشفع الشهيد لسبعين من أهله..

تبكي بحرقة .. تحتضنه بحرارة.. تصر على منعه من الذهاب..

يفشل في محاولة الحصول على المال.. يجلس على أريكته كئيبًا حسيرًا .. يفتح المذياع ليسمع الأخبار.. ينصت للمذيع وهو يروي آخر أخبار المواجهات في معبر المنطار ..

– .. وقد تعرض المتظاهرون لرصاص غزير أطلقته قوات الاحتلال مما أدى إلى مقتل الفتى أحمد لسليمان أبو تايه بعد أن

أصيب برصاصة في الرأس أودت بحياته على الفور..

يغلق المذياع ويصاب بالوجوم..

– ماذا .. أحمد.. بهذه السرعة..

يشعر بدوار .. يتململ وينهض .. يروح ويجئ..

– ماذا أفعل .. لابد أن أذهب .. لابد أن أتدبر الأمر.. يتسلل إلى صالة المنزل، يمشي ببطء شديد.. يغافل أمه ويفتح الباب ويخرج مسرعًا .. ينطلق نحو موقف السيارات .. يهجم على سيارة تنقـــل مجموعة من الشباب إلى معبر المنطار..

– أرجوك.. أرجوك أيها السائق .. خذني معك إلى هنـــاك.. أرجوك..

– هل تملك أجرة الطريق؟

– كلا يا عماه .. ولكني بحاجة ماسة للوصـــول إلى المعـــبر.. أرجوك أريد أن أرى ابن عمي .. إنه هناك في المنطار..

– ينظر إليه السائق فيرى الدموع تتسلل من عينيه .. يشـــفق عليه ..

حسنًا يا فتى .. هيا اصعد..

وتنطلق السيارة تنهب الأرض نهبًا .. وما هي إلا دقائق حـــتى تصل إلى مقربة من المعبر..

يقف السائق مذهولاً..

– هيا ترجَّلوا بسرعة.. لا أستطيع التقدم أكثر..

يقفز إبراهيم كالغزال .. ينطلق نحو المواجهات دون خوف أو وجل.. يصرخ بغضب..

– سأنتقم لك يا أحمد .. انتظرني أنا قادم..

وينخرط في الصفوف .. ويتناول الحجارة تباعًا.. ويلقي بعزم ومضاء .. ويتقدم نحو متاريس القتلة.. ويهتف عاليًا..

– الله أكبر .. خذوا يا قتلة..

ويصل على مقربة من الحاجز .. ويواصل إلقـــاء الحجـــارة.. ويجلجل بالتكبير.. وتختلط أصوات المتظاهرين بصوت الرصـــاص يلعلع في أجواء المعبر الملتهبة..

ويصرخ المتظاهرون ..

– مجرمون .. قتلة .. هيا أسرعوا..

وتهرع مجموعة من الشبان الأقوياء .. ويحملون الفتى المضـــرج بالدماء..

يتراجعون إلى الوراء .. يبحثون عن سيارة إسعاف.. تتواصـــل المواجهات.. تشعر أم إبراهيم بضيق في صدرها..

– أين أنت يا إبراهيم؟! ترى ماذا حل بك؟!

تفتح المذياع لتسمع آخر أخبار المواجهات مع اليهود..

– .. واستمرت المواجهات في معظم المدن والقرى الفلسطينية،

وسقط قبل قليل شهيد آخر عند معبر المنظـــار.. حيـــث أصـــيب برصاصتين من النوع المتفجر في البطن ثم في الظهر مما أدى إلى مقتله .. والقتيل من مخيم الشاطئ ويدعي إبراهيم رزق عمر..

تذهل الأم بفاجعتها ..تنهار لفقد ولدها..

تمتد يد حانية لتخفف من ألمها..

– لا تحزني يا زوجتي العزيزة .. كانت هذه أمنيته منذ مـــدة.. وقد نالها.. لحق بابن عمه وصاحبه ليعبرا معًا درب الشهادة..

هزمتهم جرأتها .. !!

سنتان من العنت والقهر يا أعداء الله ..

سنتان من التَّعذيب الوحشيّ والهمجيّ .. سلخ بالسياط .. ضرب بالعصي .. قلع للأضراس .. دوس بالأقدام على كل أنحاء الجسد الغض الطري..!!

ماذا تركتم من فنون الإذلال لم تجربوها..؟!!

ماذا نسيتم من أساليب القهر لم تستخدموها..؟!!

وبعد كل هذا الذي جرحتم بأيديكم ..هل أطفأتم شهوة الانتقام المتأججة في صدوركم العفنة؟!!

هل أشفيتم غليل أحقادكم المتراكمة؟!!

هل شعرتم بزهو الانتصار وأنتم تسلطون كلابكم القذرة على فتاة ضعيفة خائرة القوى لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها؟!

يا ويحكم .. أي الرجال تكونون؟!! بل أي الأنذال في هذا العالم أنتم؟!!

كلمات حرّى اشتعلت في خاطرها وودت لو تقذف بها في وجوههم الكالحة.

... تبكي بألم .. تخفي دموعها بيديها المكبَّلتين..

مرت تتهادى بين عدد من الجنود والمجندات اللاتي أمسكن بها ودفعنها نحو قفص الاتهام في قاعة المحكمة العسكرية البغيضة في

مستوطنة «شمرون» بالقرب من مدينة نابلس..

مشت بينهن مثقلة بالأغلال البغيضة وصوت قعقعاتها يحطم سكون القاعة وبهوها الشيطاني..

نظرت بعينين ذابلتين حولها ..

رفعت رأسها شامخة بالرغم من ضعفها وشعورها بالدوار..

وقفت بين أربع مجندات غليظات أحطن بها كالسوار في المعصم..

نظرت إلى الجنود المدججين تتأمل بعينيها أشباه الرجال ..

تمتمت بصوت خافت منبعث من قلب مكسور..

- يا إخوان القردة والخنازير.. صبرًا يا قتلة..

جلست في قفص الاتِّهام تنظر إلى البوابة التي يلج منها القضاة..

- أي محكمة هذه؟! وأي حكم سينطق به هؤلاء الظلمة؟! ماذا أنتظر غير الخيبة والظلم والهوان؟!

يسود صمت خانق بانتظار ولوج قضاة المحكمة..

يشق الصمت زعيق بوابة خشبية كبيرة تفتح على مصراعيها..

يدخل ثلاثة من القضاة حولهم بعض الجنود .. يعتلون المنصة..

ينظر بعضهم إلى بعض .. يبتسمون ابتسامات ساخرة..

يلتفت أحدهم نحوها.. ينزع نظارته عن عينين جاحظتين ..

- هه .. سعاد حلمي غزال.. هذا هو اسمك أليس كذلك؟

تنظر إليه باحتقار دون إجابة..!!

يهز رأسه..

- حسنًا .. لقد هاجمت إحدى الإسرائيليات بـــالقرب مـــن مستوطنة «شافي شمرون» أثناء وقوفها علـــى الشـــارع الرئيســـي وحاولت طعنها بالسكين.. أليس كذلك؟ «بسخرية مبطنة».

تعرض عنه وتغض طرفها استهانة بما يقول..

يظهر الضيق والحرج .. يصرح..

- أجيبي ويحك..!!

تلتفت نحوه وعيناها تقذفان بالشرر..

- نعم .. طبعًا .. فعلت ذلك .. وليتني قتلتها..

ينظر إليها القاضي بدهشة .. يشعر بالحرج..

- ماذا؟ .. تتمنين أنك قتلتها؟.. ولماذا أيتها الإرهابية؟

تنهض واقفة وقد تملكها الغضب.. تصرخ في وجهه..

غريب أن أقتلها أليس كذلك؟!!.. أما أنتم فمن حقكم قتـــل الناس..!!!

- أجيبي على سؤالي دون مواربة..

- قبل أن أطعنها بيوم واحد، هاجم جنودك قريتنـــا، خربـــوا ودمروا وعاثوا فيها فسادًا.. هدموا منازل عدة. كان مـــن بينـــها

منزلنا .. قتلوا أخي الأصغر .. كان برفقتهم جماعة من المستوطنين وكانت هذه المرأة التي طعنتها من بينهم .. فعلوا أشـــياء كـــثيرة.. قاموا بانتهاك حرمات بيوتنا.. سرقوا ونهبوا ونكلوا بنا دونما شفقة أو رحمة..

يتململ بحنق .. يضرب بمطرقته على الطاولة..

- كفى .. كفى..

تصمت وتنتظر ..

يتمتم بغيظ..

- أي نوع من النساء هذه؟!

يقلب الأوراق .. يهمس للقاضيين عن يمينه وشماله..

يتنهد بضيق .. يطرق على طاولته..

- رفعت الجلسة..

ينهض ويولي هو ومن معه..

يسود القاعة صمت رهيب .. تشرق عينا سعاد.. ترفع رأسها وتنظر حولها.. عيونهم جاحظة تنظر إليها بدهشة..

- ويحهم .. لماذا ينظرون إليَّ هكذا ؟! ماذا يريدون مني؟!!

تشعر بأنهم معجبون بجرأتها .. تستعيد ما قالته للقاضي .. تحس بأنها ألقمته حجرًا..

يقطع حبل تفكيرها صوت زعيق الباب الخشبي وهو يفتح..

يدخل القضاة في أبهة وعنجهية..

يجلسون خلف المنصة .. يتهامسون .. تظهر ابتسامات ساخرة على وجوههم وهم يرمقون سعاد..

يقلب أحدهم أوراقًا أمامه.. يرتدي نظارته..

يضرب بمطرقته على الطاولة..

ينصت الجميع..

تنهض سعاد لسماع الحكم..

– بناء على ما تقدم .. ونظرًا لاعتراف المتهمــة بجريمتــها في الاعتداء بالطعن على المواطنة.. فقد حكمت المحكمة على المتهمــة سعاد حلمي غزال بالسجن لمدة ست سنوات ونصف مع التنفيذ .. رفعت الجلسة..

تصرخ سعاد بأعلى صوتها..

الله أكبر.. الله أكبر..

تخرج مصحفًا من جيبها .. ترفعه عاليًا.. تهتف بصوت مرتفع ..

– الحكم لله، والبقاء لله، وسوف ينتقم الله منكم يا أوغــاد .. نعم سينتقم الله منكم يا أوغاد ..

يقف القضاة في ذهول .. يحدث لغط في القاعة..

تلتفت نحوهم وقد بدا عليها الغضب..

– أما أنتم .. أما أنتم يا جبناء فلكـــم هـــذه .. وتبصـــق في وجوههم بقوة..

تصرخ في وجه الجنود حولها.

– جبناء أنذال .. لا تجرؤون حتى على مواجهة النساء.. سيأتي اليوم الذي نفنيكم فيها بإذن الله .. سوف ترون أيها اليهود..

تمسك بها المجندات.. تحاول إحداهن إسكاتها بتكميم فمهـــا.. تصرخ..

– سنوات معدودة وسأعود .. سأعود يا قتلة .. سأعود للطعن من جديد .. لن نخافكم بعد اليوم .. إنما أنتم حشرات..

ترفع رأسها عاليًا وتشمخ بروح الإباء..

تلهج بالدعاء..

إلى الله أشكو.. إليه وحده دون سواه .. يـــا رب أنـــت ولي المستضعفين وناصرهم.. أنت ملاذنا يا الله..

* * *

«هذه هي قصة الفتاة الفلسطينية المسلمة سعاد حلمي غـــزال (١٧ عامًا) من قرية سالم قرب نابلس، اعتقلت بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٩٨م وعمرها (١٥ عامًا) آنذاك، وذلك بتهمة محاولـــة طعـــن إحدى اليهوديات المستوطنات، وعذبت عذابًا شديدًا. ثم حكـــم عليها بالسجن ست سنوات ونصف».

لقاء مع الرصاص..!!!

وقف بين الأشجار هنيهة ليمسح عرقه..

شعر بهدوء حالك مشوب بالحذر..

نظر حوله نظرة من أضاع شيئًا ثمينًا غاليًا على قلبه..

أشجار الزيتون صامتة لا تتحرك ..

نسائم الربيع تلاشت بلا مقدمات..

تأمل الصخور البيضاء الكبيرة عند السفح فرآهـــا واجمـــة في صمت القبور..

شعر بها تحدق فيه وكأنما تنتظر بلهفة معرفة الخبر..

تنهد بأسى وحسرة ..

جال بعينيه يمينًا ويسارًا ..

جعل يروح جيئة وذهابًا يبحث هنا وهناك، شعر بخوف يتسلَّل إلى قلبه..

أحسَّ بتعب وإرهاق فأراد أن يستريح قليلاً..

جلس على حجر تحت ظل شجرة .. شـــعر بـــدقات قلبـــه تتسارع..

أسند ظهره إلى الجذع ليخفِّف ما لحق به من الإرهاق..

أطرق يفكر بما وصل إليه الحال من بؤس وعنت..

نهض وهو يتمتم..

- لا وقت للراحة يا أبو لؤي .. يجب أن أجد ولدي..

مضى في طريقه ينشد ضالته..

- ترى أين أنت الآن يا ولدي؟!

جعل يستعرض شريطَ الذكريات ورجع بخيالـــه إلى الأمـــس القريب..

تذكر ولده وهو يكتب على جدار منزله تلك العبـــارة الـــتي كانت شاغله ومدار حديثه مع زملائه .. «منزل الشهيد الحي لؤي التميمي» .. تذكره وهو يقول لزملائه الذين زاروه يومها في البيت وكأنما يودعهم..

- جاء دوري .. اليوم سأنال الشهادة..

شعر برعشة سرت في جسده .. تمتم باضطراب..

- أيعقل هذا؟! هل يمكن أن يكون قد ذهب إلى هناك..

نهض بخفَّة ومشى خطوات إلى الأمام.. صـــوَّب نظـــرَه نحـــو الأفق..

الطريق لا زال طويلاً..

إنه ينتهي إلى الحاجز البغيض..

مشى وهواجس فقدان ولده تعبث بخياله..

تراءى له ولده وهو في فراشة الليلة الماضـــية.. كانـــت ليلـــة

غريبة..

دخل على ولده فوجده مستيقظًا يقرأ القرآن..

- ماذا بك يا بني .. ألم تنم بعد؟!

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ندية..

- لا تهتم كثيرًا يا أبي .. إنه مجرد أرق خفيف.

- ومم الأرق يا بني؟

صمت قليلاً ثم نظر إليه نظرةَ توقير وهيبة..

- شغلني التفكير بالجهاد يا أبي..

- ماذا .. الجهاد .. لا زلت صغيرًا يا بني..

- نعم يا أبي .. ولكنه المسجد الأقصى المبارك.. إنه يئنُّ تحت وطأة اليهود .. إنه يدعونا لنصرته خفافًا وثقالاً..

- ما هذا الذي تقوله يا بني .. لا تفكر كثيرًا بمثل هذه الأمور .. دع الجهاد للكبار يا ولدي..

هيا .. هيا إلى النوم.. فلابدَّ أن تستيقظ مبكرًا..

ثم تذكر آخر عهده به وقت الظهيرة عندما خرج وهو يوصي أمه أن تطبخ له طعاماً يحبه.

تمتم بحيرة..

- أين ذهبت يا لؤي؟!

– آاه .. لعلَّه توجَّه إلى تلك المستوطنة البغيضة..!! لابـد أن ألحق به قبل أن يصيبه مكروه..

جعل ينحدر إلى السفح..

سار بين الأشجار نحو الطريق الذي يوصل إلى المستوطنة..

بدت الأرض أمامه خضراء مغطاة بالأعشاب والورود البرية.. كانت آثار المجنزرات وعجلات السيارات العسكرية تثير مكـامن الغضب والأسى في نفسه..

جعل يتأمل بعض الأشجار المتناثرة التي خلَّفها اعتداء يهـودي غاشم قبل يومين..

تذكر رصاصهم الذي خلف عددًا كبيرًا من الجرحى ..

ظلت صور الجرحى الذين اعتاد نقلهم كل يوم إلى المستشفي محفورة في ذهنه .. تحسس بقع الدمن على ثوبه نتيجة حمله لشهيد سقط عند بوابة القرية..

كان يعمل مسعفًا في قريته (دير نظام).. وكان همامًا يسـارع كل يوم لنقل الشهداء والمصابين خلال المواجهات العنيفـة الـتي تشهدها منطقة رام الله منذ بداية الانتفاضة ..

جلجل في أذنيه الرصاص فجأة..

انتفض من شروده فزعًا..

نظر إلى نهاية الطريق فرأى سحب الدخان الأبيض ..

أسرع يغُذُّ الخطا نحو مصدر الصَّوت..

كان كلَّما اقترب قليلاً يسمع مزيجًا من الأصوات والضَّجيج ..

تكبير وصراخ وأزيز رصاص ..

بدأ مشهد المواجهة يظهر له من بعيد..

رأى الجموع وهي تشتبك مع الجنود عند الحاجز العسكري قرب المستوطنة..

جعل يتأمَّل الشَّباب الذين تناثروا في الجبال أو اختبؤوا خلف الصخور هربًا من الرصاص..

صوَّبَ نظرَه نحو شاب أقبل نحوه هاربًا من زخَّات الرصاص المنهمر.. تمتم بدهشة..

- كأني أعرفه .. ترى من يكون؟!.. آاه.. إنه ابنُ أخي .. لابدَّ أنَّه رأى ولدي..

أسرع نحوه بخفة ..

جعل ينادي ويصرخ..

- وليد .. وليد..

لم يلتفت وليد إليه .. كان منهمكًا في التقاط الحجارة..

أعاد أبو لؤي النِّداء .. اقترب منه ..جعل يصرخ ..

- وليد .. وليد..

سمعه أخيرًا .. توقَّف والتفت إليه ..

– عمِّي .. ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

– وليد يا ابن أخي هل رأيت ولدي؟

– ولدك لؤي .. نعم .. نعم .. إنه هناك في المقدمة..

– في المقدمة؟!

– نعم .. إنه هناك يلقي الحجارة على اليهود .. ربما نراه بعد قليل..

– أراه .. لابد من ذلك .. سأذهب إليه في الحال..

– لا تفعل يا عماه .. إنهم يطلقون الرصاص بغزارة ..

– لابد أن أعثر على ولدي يا وليد .. هيا إلى اللقاء..

وينطلق بسرعة نحو ميدان المواجهة..

يتأمل المتظاهرين..

يحدق في وجوههم دون أن ينتبه للجنود الذين جعلوا يطلقون الرصاص بغزارة..

كانت أصوات التكبير تجلجل في السماء..

تقدم ببطء وسط سحب الدخان المسيل للدموع.

شعر بحرقة في صدره..

رأى مجموعة من الشُّبَّان تهاجم بشراسة.

نادى بأعلى صوته..

- لؤي .. ولدي لؤي.. أين أنت يا ولدي.. لؤي ..

سمع صوتًا يأتيه من الأمام..

- أنا هنا يا أبي .. أنا هنا خلف الصخور..

شعر بسرور غامر لعثوره على ولده حيًّا بين المتظاهرين..

تقدم قليلاً لرؤيته ..

- لا .. لا تتقدم يا أبي .. ابتعد من هنا بسرعة..

لم يستجب أبو لؤي .. ظل يتقدم..

رآه ولده فخشي عليه من الجنود..

قفز بسرعة البرق وركض نحوه ليبعده عن منطقة الخطر..

اقترب منه قليلاً..

تهلل وجه الوالد وهو يراه مقبلاً نحوه..

- ولدي .. حبيبي لؤي..

- أبي انتبه يا أبي ..

- تعال بسرعة يا بني ..

ويصل لؤي فيمد يده لأبيه..

ويفتح الوالد ذراعيه ليضم ولده..

وينهمر الرصاص نحوهما بغزارة..

ويسقط لؤي بين أحضان والده..

يحتضنه ويصرخ بأعلى صوته..

- لؤي .. ولدي.. ماذا أصابك يا ولدي؟!

وجاءه الجواب سريعًا من قبل القناصة الذين اعتلـــوا أبـــراج المستوطنة..

ويشعر بوخز في خاصرته ورجله ..

- آاه..

يحس بألم شديد..

يحاول حمل ولده..

يتأمل وجهه..

يرى الدماء تسيل من رأسه..

يحاول النهوض فلا يستطيع .. يزحف ويرتمي علـــى صـــدر ولده..

- ولدي .. ولدي..

يهرع نحوهما أحد الشباب لإسعافهما..

يصل إليهما ويحاول حمل لؤي ..

تأتيه رصاصة غادرة في الظهر ..

يسقط هو الآخر..

ينزف بغزارة..

يصاب أبو لؤي بدوار .. يشعر بضــباب يلفــه .. يتــرنح ويهوي..

يستيقظ في اليوم التالي فينظر حوله..

يرى الأطباء يحيطون به..

- ولدى .. أين ولدي ..

يربت الطبيب على كتفه..

- هون عليك يا أبا لؤي .. هون عليك ..

- هل مات ولدي؟!

يصمت الطبيب هنيهة .. يتنهد بأسى..

- نعم يا أبا لؤي .. لحق بقافلة الشهداء إن شاء الله .. لكن..

- لكن ماذا؟

- لكن .. آاه .. كم هي رائعة تلك الابتسامة التي ارتســمت على شفتي ولدك .. لقد كانت بحق ابتسامة حيّ يــرزق.. ﴿**وَلَـا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْــدَ رَبِّهِــمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩].

* * *

في خندق واحد..!!

أجواء غزة ملتهبة ..

دبَّابات الجيش تقتحم من عدة جهات..

القصف الوحشيّ لا يتوقف..

حمم اللهب تتصاعد في كل مكان..

منازل تتهاوى كالورق تحت قذائف المدافع الثقيلة..

حتى البحر كان ينفث باللَّهب..!!

رصاص ينهمر بغزارة هنا وهناك..

اعتداءات دمويَّة تصدى لها أهل غزة الذين هبُّوا رجالاً ونساءً وشيوخًا وأطفالاً متسلِّحين بالحجارة وبعض البنادق والقنابل اليدوية القليلة، والتحموا في مشاهدة بطولية مع جيش الاحتلال الذي اقتحم المنطقة بالدبابات والمدرعات وقاذفات الصَّواريخ..

تصاعدت سحب الدخان الأسود في سماء القطاع المكفهر..

ظلت سيارات الإسعافات تطلق صفيرها وتنقل القتلى والجرحى الذين تساقطوا بالمئات..

في هذه الأثناء كان «محمد» يحفر الأرض في إحدى زوايا فناء بيته..

نبش التراب بيديه..

ظهرت بلاطة رخاميَّة مستطيلة..

رفعها بقوة ..

مد يديه في الحفرة وأخرج صندوقًا خشبيًّا ثقيلاً ..

أزاح بقايا التّراب عنه.. فتحه برفق..

أخرج أسلحته التي خبَّأهـــا عـــن عيـــون رجـــال السُّـــلطة الفلسطينيَّة..

كان قد فارقها بعدما خاض بها عدة عمليات ضد المحتلين ..

أمسك بالرَّشَّاش وجعل يتأمله..

تناول حزامًا فيه بعض المخازن والقنابـــل اليدويـــة .. ربطـــه بإحكام حول وسطه..

وقف على قدميه وجعل ينفض التراب عن ثيابه..

تهلل وجهه الوضاء ..

مسح عن جبينه قطرات من العرق البارد تسللت نتيجة التعب والإرهاق ..

ضرب بيده على الجزء الخشبي من رشاشه..

- طالت غيبتك عني.. آن أوان الجهاد .. جاء دورك يا محمد.

أسرع بالخروج من بيته نحو ساحة المواجهة..

أطلق لساقيه العنان..

كانت أصوات القذائف تجلجل في أذنيه..

توجه إلى بناية عالية تطل على ساحة المعركة..

صعد الدرج بخفة..

أمسك بالرشَّاش وتقدَّم بحذر.

جثا على ركبتيه في زاوية فوق سطح البناية..

أطل على ساحة المواجهة..

سُحُبُ الدُّخان تحجب عن ناظريه رؤية الدبابات والجنود..

أخرج قنبلةً يدويةً ونزع صمامها بأسنانه..

رأى القذائفَ وهي تنهمرُ على المنازل فتحيلها قاعًا صفصفًا..

نظر أسفل البناية فوجد مدرعة تسير بـــبطء وحولهـــا بعـــض الجنود..

- رائع .. يا له من صيد ثمين..

تمتم بالتسمية .. قذف القنبلة علـــيهم بســـرعة .. جلجـــل بالتكبير..

- خذوا يا قتلة..

وانفجرت وسط الجنود الذين تساقطوا بين قتيل وجريح..

جعل يطلق الرصاص نحوهم بغزارة ..

سمع صراخهم، ورأى البقية وهي تفر من أرض المعركة..

شعر بزهو الانتصار..

جعل يتصيدهم برصاصه..

سمع فجأة صوت رصاص وتكبير بالقرب منه علـــى ســـطح البناية..

التفت نحو مصدر الرصاص ونظر بتمعن ..

رأى شبح مقاتل آخر يقبع في زاوية أخرى على السطح ويطلق رصاصه نحو الجنود بغزارة..

شعر بسعادة تغمره..

- الحمد لله.. لست وحدي الذي أقاتلهم هنا..

عاد ليطلق الرصاص نحو الجنود الهاربين ..

لاحظ تحركات غريبة للمدرعات الإسرائيلية مقابل البناية..

رأى حشودًا مكثفة في المكان ..

فوجئ بمدرعة تصعد تلة قريبة وتصوب فوهة رشاشـــها نحـــو سطح البناية ..

التفت إلى صاحبه يحذره..

- هيه .. أنت .. انتبه هناك.. سيطلقون عليك الرصاص..

لم يكن باستطاعة ذلك المقاتل سماع صرخاته..

كانت أصوات القذائف والرصاص تصم الآذان..

واصل إطلاق رصاصه عليهم..

نظر محمد إلى المدرعة فرأى فوهة رشاشها الثقيل تتوجه نحـــو البناية .. انبطح على الأرض بخفة ..

دوى الرصاص وانهمر على البناية بغزارة ..

سمع صرخة مدوية..

– آاه .. ساعدني أرجوك..

نظر نحو صاحبه ..

رآه ممددًا على الأرض.

زحف نحوه والرصاص يدوي فوق جسده..

وصل إليه بصعوبة.

كان منكفئًا على بطنه والدم يسيل من كتفه..

هزه ليتأكد هل هو حي أم ميت؟!!

– أخي .. هل أنت بخير؟!

تنهد الرجل وحاول النهوض..

– آاااه..

– على رسلك .. سأساعدك..

مد إليه يديه وجعل يساعده في النهوض لنقله إلى أسفل البناية..

نظر إلى وجهه الذي بدا معفرًا بالتراب .. أصابه الوجوم..

– ماذا .. غير معقول .. أهو أنت ..؟!!

فتح الرجل عينيه الزائغتين ..

نظر إلى محمد بتمعن..

- محمد .. آااه ..

هز برأسه..

- لا عليك .. لا تخف .. أنت مني وأنا منك.

حمله بخفة وهرع نحو سلم البناية .. نزل به بسرعة .. وصل إلى الشارع الذي ضج بالصراخ وأزيز الرصاص..

جعل يصرخ على المارة..

- جريح .. جريح.. أين ســيارة الإســعاف.. أســرعوا .. ساعدوني..

هبَّ الناس لمساعدته .. نقلوه من المكان بسرعة..

وصلت إحدى سيارات الإسعاف إلى المكان ..

أنزله عن كتفه ووضعه على السرير برفق.. انطلقت الســيارة مسرعة نحو المستشفى..

عاد الناس إلى ساحات المواجهة بسرعة.. وظل محمــد واقفًــا مصوبًا بصره نحو السيارة التي جعلت تختفي وتتلاشى خلف سحب الدخان..

رجع بمخيلته إلى الوراء..

تذكر يوم كان في السجن يضطهد ويعذب على يــدي هــذا

الرجل..

تذكر ظلمة الزنازين التي قبع فيها سنوات تحت حراسة هـــذا الجريح..

جعل يستعرض صور التحقيق والإهانة يوم كان صاحبه هـــذا هو السجان..

كانت تهمته القيام بعملية مسلحة ضد جنود الاحتلال..

كانت أيام حالكة شديدة السواد..

- آااه. كم كنت أكره هذا الرجل ..

- كنت أتمنى له كل شر..

- لقد لقيت على يديه من العذاب ما لا يوصف..

- لكن الأمر مختلف الآن..

- لقد تغيَّر كلُّ شيء..

- ظهر الحقُّ وانكشف الغطاء ..

- آاه .. أشعر بأنه قريب مني.. أشعر بأنه جزء من كياني..

- سبحان الله .. القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء..

وتحولت العداوة إلى صداقة حميمة في ظل المقاومة .. واجتمـــع السجين والسجان في خندق واحد..

وصار محمد لا يطيق الابتعاد عن صديقه الذي تماثل للشفاء .. والذي كان ذات يوم سجانه وجلاده!!

بؤرة الموت

في المنطقة الحدودية عند معبر كارني في مدخل قطاع غزة كان الرقيب محمد العطلة على موعد مع الشهادة.. فقد خرج في صحبة سبعة من زملائه إلى منطقة شهدت مواجهات محتدمة..

كان قد سمع أن مناطق الاحتكاك عند الحدود مع مصر تشهد غليانًا ومواجهات عنيفة..

حرك هذا الخبر في قلوب زملائه مشاعر الحذر .. إلا أن محمدًا كان على خلاف ما كانوا يشعرون به .. فقد فاق بجسارته ورغبته القوية في قتال اليهود حدود التعقل الأناني أو التريث الجبان.

وما هي إلا ساعة أو أكثر حتى شاع خبر استشهاده مـــع أن تصور الحدث على هذا النحو من السرعة جعل تصـــديق الأمـــر صعبًا على زملائه وأهله.

وربما كان نوعًا من الإمعان في التعذيب وإيغالاً في الانتقام أن يحرم المرء من أهله وأحبابه وزوجته.. وهذا ما حصل للشهيد محمد الذي لم يمر على زواجه سوى عدة شهور.

وإننا في هذا الصَّدد نذكر في تاريخنا الإسلامي قصة الصـــحابي حنظلة الذي لبَّى منادي الجهاد وهو لا يزال في أيام عرسه الأولى، فاستشهد وهو على جنابة فغسَّـــلته الملائكـــة فســـمِّي «غسّـــيل الملائكة».

ونذكر جيدًا قصة الصَّحابيّ عمير بن الحمام الذي استشهد في

غزوة بدر بعد إشارة الرسول ﷺ بأن من قُتل في سبيل الله فهو من أهل الجنة، فقال: «لئن حييت حتى آكل هذه التمرات، إنها لحيـــاة طويلة». فألقى تمراته فقاتل حتى قتل.

وفي قصص شهداء الأقصى قصص مماثلة أيضًا، فهـــذا الفـــتى «أمجد» الذي استشهد أول شهر رمضان.

وحينما وصل خبر استشهاده إلى والدته هرعت إليه وجعلـــت تتأمله وهو مسجى على الأرض والدماء الزَّكية تغطي رأسه.

انحنت عليه وقبَّلته وشمت عبير دمه الفواح.. أمســـكت بيـــده فتساقط منها تمرات كانت معه لم تمهله رصاصات اليهود حتى يفطر عليها.

وهكذا كان الرقيب «محمد» على ظهر سيارة الجيب عنـــدما تلقى الرصاص الغادر.

حاول بعض المارة إنقاذه فباءت جميع المحاولات بالفشل؛ حيث فتح اليهود النار عليهم فأصيب بعضهم مثل الملازم «أبو ســـعيد» الذي كان يرافق الرقيب محمد..

يقول: «كانت جهودنا منصبَّةً على الحيلولة بين المتظـــاهرين وبين نيران اليهود.. حتى حانت لنا فرصة لإنقاذ الشَّـــهيد «محمـــد الدرة» ووالده الذين كانا في بؤرة الموت في مكان المواجهة.. لكن رصاص الغدر والخيانة كان أسرع».

ويتابع: «فسدَّدوا إلينا بنادقهم وكنَّا هدفًا سهلاً لهم .. وبتقدير

الله تعالى انحرفت قليلاً فأصابت الرّصاصة محمد العطلة».

وعلى الفور ألقى بجسده على أبي سعيد الذي يقول «كنـــت أظنه يتفادى الرصاصة فترنح الجيب بعد أن ارتخت يداه».

فحاولت السيطرة عليه عندما تأكَّد لي أنَّ زميلي قد أصــيب، فقمت بالضَّغط على دواسة السَّيَّارة حتى استطعت الخروج من بؤرة الموت.

وهكذا انتهت هذه القصَّة الدَّامية التي طوت سجلَّ هذا الشَّهيد .. غير أن ملل التكرار لا يعتري مثل هذه الأقاصيص التي كتبــت بمداد الدماء الزكية، والتي سطرت بلوعات اليتــامى وصــرخات ودموع الثكالى؛ خاصة في تلك اللحظات التي أعقبت دفن الشهيد.

* * *

المهندس الشهيد

صوت وصخب في أحد بيوتات رافات القريبة من نـــابلس في فلسطين .. القابلة تهرول إلى صاحب الدار تزف البشرى إليه.

ينهض مستبشرًا متلهفًا لسماع الخبر..

- أبشر يا شيخ عبد اللطيف فقد رزقت مولودًا ذكرًا..

تهللت أسارير الوالد الملهوف..

تحمل الوالدة جنينها وتنظر إليه برحمة وحنـــان .. تضـــمه إلى صدرها وقلبها يكاد يطير من الفرح..

- يا الله .. انظر إليه يا أبا عبد اللطيف .. إنه خفيف الوزن .. لم أشعر بألم الولادة أبدًا ..

كان ذلك المولود «يحيى» الذي نما وترعرع في ظـــل والديـــه، ورضع لبن حب الأقصى وفلسطين المباركة..

لم يدر بخلد والديه أنه سيذيق قطعـــان المســـتوطنين وجنـــود الاحتلال ألوان العذاب .. وأنه بعمليات البطولة التي سطرت أروع ملاحم البطولة على أرض فلسطين استحق أن يلقب بالمهندس.

وفي أكناف هذا البيت المتدين نشأ «يحيى عياش»، وفي كنـــف والده الشيخ عبد اللطيف دار هذا الحوار بين الولد وأبيه عندما همَّ الأب بالذهاب إلى المسجد.

- أبي .. أريد الذهاب معك إلى المسجد..

- مازلت صغيرًا يا بني..

يلح يحيى على والده ويشدُّه من ثيابه .. ونظرًا لــذلك ينــزل الوالد عند رغبة ابنه ويصحبه إلى المسجد .. وحال دخوله المسجد أبدى المصلون استغرابهم ودهشتهم من حضور طفــل صــغير لم يتجاوز عمره الرابعة من العمر..

أنكروا على والده وعاتبوه.. قالوا له بدهشة..

- هذا طفل صغير لا يتقن الوضوء فكيف بفــرائض الصــلاة وسننها؟!

لم يأبه والده بهم .. فقد كان اهتمام يحيى منذ صغره منصــبًا على الصلاة والقرآن..

وهو يشعر أن ابنه ليس ككل الأبناء..

وتمر الأيام .. وتظهر على محيَّاه أمارات الــذكاء وعلامــات النجابة..

يقول والده: «كان يحيى معروفًا بتفوقه في دراسته وخاصــة في مادة الرياضيات، وكان التفوق حليفه من الابتدائي إلى أن تخرج من الجامعة، كان يحيى يتميز بالهدوء وقلة الكــلام وقلــة المخالطــة للشباب».

وهذه صفات من يتميز ببعد النظر والهمــة العاليــة والإرادة النافذة.. وليس هذا على كل حال..

لقد شكَّل الحقد اليهوديُّ الذي أخذ طابعًا دمويًــا تمثــل في

تكسير العظام وإطلاق الرصاص العشوائيّ على العزَّل من السِّـــلاح وهدم البيوت وتجريف المزروعات- معينًا كافيًا لتحريك كـــوامن الغضب في صدر يحيى ..

كما أثار في نفسه حبَّ الجهاد والرَّغبةَ في المقاومة الباسلة التي تطفئ لهب القلوب الملتهبة فوق جمر الاحتلال ..

ولذلك فكَّر كثيرًا كيف يردُّ لليهود بعضَ ما بذوره في طـــول الوطن وعرضه من قتل وتدمير.. كما فكَّر في كيفية زرع الرُّعـــب والفزع في قلوب الجنود وقطعان المستوطنين الذين أذاقوا الشَّـــعبَ الفلسطينيَّ من كؤوسهم المرَّة علقمًا..

وما أن شَبَّ وتخرَّج من الجامعة حتى ســـارع للانضـــمام إلى كتائب القسّام، ليأخذ مكانه المناسب في الجهاد والمقاومة..

وبدأ الإعداد لعمليات نوعية غير مسبوقة في تـــاريخ الجهـــاد الفلسطيني..

كان يحيى يقوم بالتَّخطيط الدَّقيق لعمليات التفجير التي هـــزت أركان العدو.. وكانت عملياته ترتكز على ثلاثة محاور هامة: دقة التنفيذ، اختيار الوقت والمكان المناسبين، عدم ترك أي أثر يمكن من خلاله التعرف على منفِّذ العملية..

وهذه أمور أساسية اعتمد عليها البطل يحيى ..

وظل يضرب في العمق الإسرائيليّ هنا وهنالك حـــتى أدخـــل الرعب لكل بيت صهيوني في فلسطين المحتلة..

وشعرت أجهزة الأمن الصهيونية بالعجز عن ملاحقته..

وهذا كله جعل اليهود أمام تحدٍّ لا مناص لهم من خوضه..

وبعد سنوات من المطاردة المضنية، والمحاولات الفاشلة لاعتقاله أو اغتياله رأى جهاز الموساد ضرورة استخدام عملاء سريين مدربين تدريبًا جيدًا يمكنهم الوصول إلى «يحيى عياش».

ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل.. فقد فشلت الأجهزة الأمنية في العثور على عميل يمكنه الاتصال بيحيى عياش أو الوصول إليه بالرغم من الجهود الكبيرة لتحقيق ذلك..

ولكن القدر نافذ لا محالة .. وحب عياش للشهادة ورغبته بها كان دافعًا له لتحقيقها..

ظل يطلبها في دعائه وقيامه وصيامه..

وظل ينشدها إلى أن جاءته سعيًا ..

فقد عثر اليهود على بغيتهم بعد وصول معلومات تؤكد معرفة أحد العملاء مكان إقامة يحيى عياش في غزة ..

كان يحيى يقيم في منزل صديق حميم له تعرف إليه في الجامعة، وكان يدعى «أسامة حماد» وذات يوم طلب المهندس منه تقديما في مجال الاتصالات مع الضفة الغربية؛ خاصَّةً بعد أن اكتشف أمر الهاتف الذي كان يستخدمه للحديث مع أهله.

ويلبي أسامة طلبَ يحيى .. ويتصل بقريب له للحصول على هاتف نقَّال.. ولا يعرف أسامة أن قريبَه هذا جاسوس يعمل لصالح

المخابرات الإسرائيلية.. وبطريقة ماكرة يشك هذا العميل في طلب قريبه.. وعلى وجه السرعة يتَّصل بالقيادة اليهوديَّة.

– آلو جنرال غيلون .. لديّ معلومات لا تخطر على بال.

– أخبرني ما لديك..؟

– أخبرني خال أسامة أن المهندس يتصل بوالده من بيته..

– حقًا .. حسنًا .. لابدَّ أن أراك في الحال.

وجدت المخابرات اليهودية في «كمال حماد» نقطـــة ضـــعف يجب أن تستغل .. فقد كان الخائن ضالعًا في الوشاية بعـــدد مـــن المجاهدين من قبل.. وله أعمال تجارية لصالح الإدارة اليهوديَّة، كما أن له علاقة وطيدة بذلك الضابط الذي يزوِّد المخابرات بمعلومات عن المهندس.

يتَّصل الضَّابط اليهوديُّ بالعميل كمال.. ويطلب منه التقـــرب أكثر من أسامة؛ لأنَّه قريبٌ له..

وتستنفر دولة الكيان العبري قواها وأجهزة أمنـــها.. وتبـــدأ الإعداد لخوض معركة جديدة مع المهندس .. ويعقد اجتماع على مستوى أركان الجيش وأجهزة الاستخبارات ورئيس الوزراء.. كل ذلك من أجل رجل واحد أوقف إسرائيل على قدم واحد.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَـــرُوا الرُّعْبَ**﴾ [الأنفال: ١٢]، وصـــدق رســـول الله ﷺ إذ يقـــول: «**نصرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر**». وما هذه العمليَّات الاستشهاديَّة

التي ينفِّذُها المجاهدون في إسرائيل إلا بعض ما يستحقُّه هؤلاء القتلة.

ولم تمض أيام قلائل حتى كانت العلاقة قد توطَّدت بين كمال وابن أخته أسامة .. وذات يوم قدم كمال هدية لابن أخته، وهي عبارة عن هاتف.. وبعد يومين .. وطبقًا لتعليمات اليهود يطلب كمال الجهاز من أسامة لمدة يوم أو يومين.

وتكرَّر طلبُه للهاتف لعدَّة مرات، وفي كل مرة يعتذر كمال بأعذار مختلفة..

وكان ذلك مكرًا من كمال حتى لا يتسلَّل الشَّكُّ إلى قلب أسامة.. وعلى الرغم من ذلك فقد كان عيَّاش حذرًا من استخدام مثل هذه الأجهزة؛ إما لسهولة التَّنصُّت عليها، أو لإمكانية التَّحكُّم بها من بعد، ولكن الحذر لا ينجي من القدر.

فقد تمكَّنت المخابرات مع تتبع مكالمة أجراها الشيخ عبد اللطيف مع ابنه الشهيد، ومن خلال المكالمة اتَّضح للضَّابط اليهوديِّ أنَّ والدَ المهندس سيتَّصل بابنه على منزل أسامة يوم الجمعة في ساعة محددة.

وعلى الفور انتقل ومن معه إلى موقع قريب من بيت لاهيا للإشراف بشكل مباشر على عملية التنفيذ..

استعانت الأجهزة الأمنية بخبراء فنِّيِّين قاموا بتركيب بطارية خاصة صنعها الموساد في الجهاز الخلَويّ الذي استعاره الخائن كمال من ابن أخته؛ حيث استبدلت البطارية بعبوة ناسفة يمكن التحكم بها من بعد.

انتقل المهندس إلى منزل أسامة السَّاعة الرَّابعة والنصف حـــين أدى صلاة الفجر، ثم ذهب إلى النوم، وحسب ما يرويه أسامه فإنه كان من المفترض أن يتصل والد المهندس على تليفون المنزل السَّاعةَ الثامنة .. غير أن اتصالاً غريبًا جرى في ذلك الوقت.

يتصل كمال على أسامة..

– ألو أسامة افتح جهازك الخَلَويّ، يوجد شخص يريد الاتِّصالَ بك..

ثم فجأة تنقطع الحرارة عن الخط الهاتفي الثابت، حتى يضـــطر لاستعمال الخلوي..

وفي تمام الساعة التاسعة يتصل والد المهندس بالهاتف الجوال..

ترفع زوجة أسامة السماعة وتعطيها أسامة الذي كان نائمًا مع المهندس في نفس الغرفة.

يعطي أسامة المهندس الهاتف بعد إيقاظه ..

– يا يحيى والدك على الهاتف..

يأخذ المهندس الهاتف، ويخرج أسامة من الغرفة..

يجري بين المهندس ووالده الحوار التالي:

– ألو يحيى طمّني عنك يا ابني..

– كيف حالك يا أبي؟

– دير بالك على صحتك..

وفي هذه اللحظة يضغط المجرم اليهودي على جهاز لإرسال ذبذبات التفجير.. ويحدث الانفجار الأثيم ..

عاد أسامة إلى الغرفة مندهشًا.. وجد أن يد المهندس قد هوت إلى الأرض وقد غطى الغرفة دخان كثيف .. ثم تبين أن المهندس قد استشهد.

طائرة مروحية تحوم فوق المنزل بعد الانفجار..

بعد ذلك يتصل الخائن كمال بوالدة أسامة ويطمئن على صحته..

تخبره الوالدة بأن ابنها بخير..

يتصل أسامة على بعض أصدقاء المهندس من كتائب عز الدين القسام ويروي لهم ما حدث..

زوجة الشهيد أم البراء تتذكر الساعات الأخيرة من حياته..

تقول بأنه وَدَّعها يوم الخميس قبل استشهاده بيوم وخرج من المنزل الذي كان يقيم فيه في غزَّة للقيام بعملية في تلك الليلة، و لم تعلم باستشهاده إلا مساء يوم الجمعة..

وهكذا يمضي هذا البطل الشهيد إلى ربِّه مسطِّرًا أروع الأمثلة البطوليَّة التي تتوارثها الأجيال واضعةً سيرة هؤلاء الأبطال نبراسًا يهتدي بها شباب الأمة عندما تَدْلَهِمُّ الخطوب..

* * *

خاتمة

وبعد أن استعرضنا هذه القصص التي تُعَدُّ شاهدًا على حقـــد اليهود وظلمهم، يجدر بنا أن نعرف أنَّ ما يتعرَّض لـــه إخوانُنـــا في فلسطين من ألوان العذاب والقهر والإذلال وسفك للدِّماء لن يضيع هدرًا، وأنَّ الاضطرابات النفسية التي يتعرض لها الأطفـــال هنـــاك نتيجة للقصف، والمساواة بين الجَلَّاد والضحية والمطالبة الجائرة مـــن حلفاء إسرائيل بإيقاف العنف من قبل الفلسطينيين في الوقت الذي تُدعم فيه إسرائيل بأحدث أنواع الأسلحة؛ إيغالاً في الجريمة، وحيادًا عن الحق، ودفعًا للظالم لتنفيذ ظلمه.. لن يذهب سدي، ولن يكون بدون ثمن..

وإن الناظرَ في تأريخ اليهود يرى أن مطامعهم لا تقـــف عنـــد حد، ولا يردهم مجلس أمن أو هيئة أمم؛ فهم ليس لهـــم ذمـــة ولا عهد، ولا يعترفون بالمواثيق والاتِّفاقيَّات.. فمتى ما كانت الغلبةُ لهم علوا واستكبروا وقتلوا وشردوا، ومتى ما كانت الغلبـــة لغيرهـــم ضعفوا واستكانوا وانزووا لتدبير المكائد والتخطيط للمؤامرات.

فهم في جميع أحوالهم شرٌّ وبلاء، وهم سرطان زرع في جســـد هذه الأمة المشتَّتة، ولا يمكن استئصاله إلا بالتَّمَسُّك بالكتاب والسُّنَّة وإعلان الجهاد..

فهذا هو الذي يخيفهم .. وهذا هو الذي يحسبون لـــه ألـــف حساب.. والدلائل عليه كثيرة لا تكاد تحصى .. خاصة مع أحداث الانتفاضة التي أثبتت ذلك بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ..

ولذلك نوجِّه الكلمة الخاتمة لأولئك الذي أطاعوهم وساروا في ركابهم، وظنُّوا أن الصلح مع بني صهيون سيجلب الخـــير ويحـــرر الأرض..

فإلى هؤلاء نقول:

لا تتمنوا تحقيق المستحيل.. وارجعوا إلى كتاب ربِّكم؛ ففيـــه الجواب..

واقرؤوا المائدة والإسراء..

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

ولذلك لا حلَّ مع اليهود سوى الإعداد والجهاد..

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينـــا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

عبد الناصر محمد مغنم

وخالد بن عبد الله الزرير

الخميس ١٥/ ٣/ ١٤٢٢ هـ

الرياض ١١٥١٢

ص ب / ٤٥٤٣٣